من كنوز اللاذقية المجهولة :

قصة بناء أثري

جبرائيل سعادة

في اللاذقية بناء أثري في غاية الروعة لم يكترث به احد قبل عام ١٩٧٨ ، بل يمكن القول ان جميع الذين يهتمون بأوابد الماضي كانوا يجهلونه تماما • فالرحالة الاجانب الذين زاروا قطرنا خلال القرنين الاخيرين لم يأتوا على ذكره بينما يتحدثون عن مخلفات العصور القديمة الموجودة في مدينتنا ولا سيما الرومانية منها ، كما انه لم يلفت انتباه العلماء الذين قاموا بدراسة آثار اللاذقية (١) • وحتى المديرية العامة للاثار والمتاحف لم تسجله الى الآن (٢) بين المباني التاريخية • ويسرنا أن نقدم في هذه المجلة أول دراسة أثرية وتاريخية عنه •

ينتصب هذا البناء في مكان بارز من المدينة ليس ببعيد عن البحر • وهو يحتل القسم الجنوبي من عقار (٣) تبلغ مساحته ١١٩٧٥ مترا مربعا ويحده من الشمال شارع عدنان المالكي ومن الغرب شارع الاندلس ومن الجنوب شارع القدس • ولما كانت الدار التي أقيمت فيما بعد على زاوية البناء الجنوبية الغربية قد اصبحت في عهد الانتداب منزل المندوب الفرنسي اعتاد اللاذقيون ان يطلقوا على العقار بكامله ، بما يتضمنه من أبنية مختلفة ومن حدائق اسم « المندوبية »

يبلغ طول البناء الأثري ٦٠ مترا وعرضه ٤٥ مترا أي أن مساحته الاجمالية تبلغ ٢٧٠٠ مترا مربعا مع العلم ان المساحة المبنية منه لا تتجاوز ٢٠٥٦ مترا مربعا اذ تتوسطه ساحة داخلية (انظر الى الرسم رقم ١،١) طولها ٢٨ مترا وعرضها ٢٣ مترا • ان ما نراه اليوم من هذا البناء يشكل الطابق الارضي ولا شك انه كان يحتوي في الاصل على طابق علوي • أما الطابق الارضي فهو عبارة عن عدد من الاروقة وعن مجموعة من

القاعات الفسيحة يبدو أنها كانت مستودعات • ان معظم الجدران قد أزيلت غير ان المدماك الاول من بعضها لا يزال ظاهرا ، لذلك بات من الصعب اليوم ان نعرف اذا كانت الاجنحة يشكل كل منها مستودعا واحدا أو أكثر • فالبناء بوضعه الحالي يتألف بمعظمه من دعائم ضخمة ومربعة (٤) تحمل سقوفا معقودة وكلها مبنية بالحجر الرملي المستعمل حتى اليوم في اللاذقية • أما العقود فتكون تارة متقاطعة أ ي على شكل قبو متصالب الراوند (٥) وتارة زاوية الرأس (٦) وتارة تجمع بين الطريقتين (٧) وتبدو كل العقود من الساحة ومن الخارج على شكل أقواس زاوية الرأس (انظر الى الرسوم رقم ٢ و ٣ و ٤ و ٥) • وكل هذه المنشآت موزعة على شكل مستطيل حول الساحة الداخلية • وسنرى فيما بعد الاسباب الاثرية والتاريخية التي تدفعنا الى الاعتقاد ان هذا البناء كان عبارة عن خان يستعمل لتخزين البضائع وكمقر لبعض التجار •

للبناء مدخلان ، الاول ينفتح في الواجهة الشمالية حيث توجد قاعة (الرسم ١ ، ٢) يزين غلق عقدها حجر يحمل بعض النقوش وفي جدارها الشرقي باب ينفتح على سلم حجري مؤلف من ٢٢ درجة ومبني ضمن الجدار ، تتقدمه فسحة صغيرة مربعة يعلوها عقد جميل مزين بحجر منقوش ، أما السلم فمسقوف بعقد ذي مقطع نصف دائري • يبدو أن هذا المدخل الشمالي كان

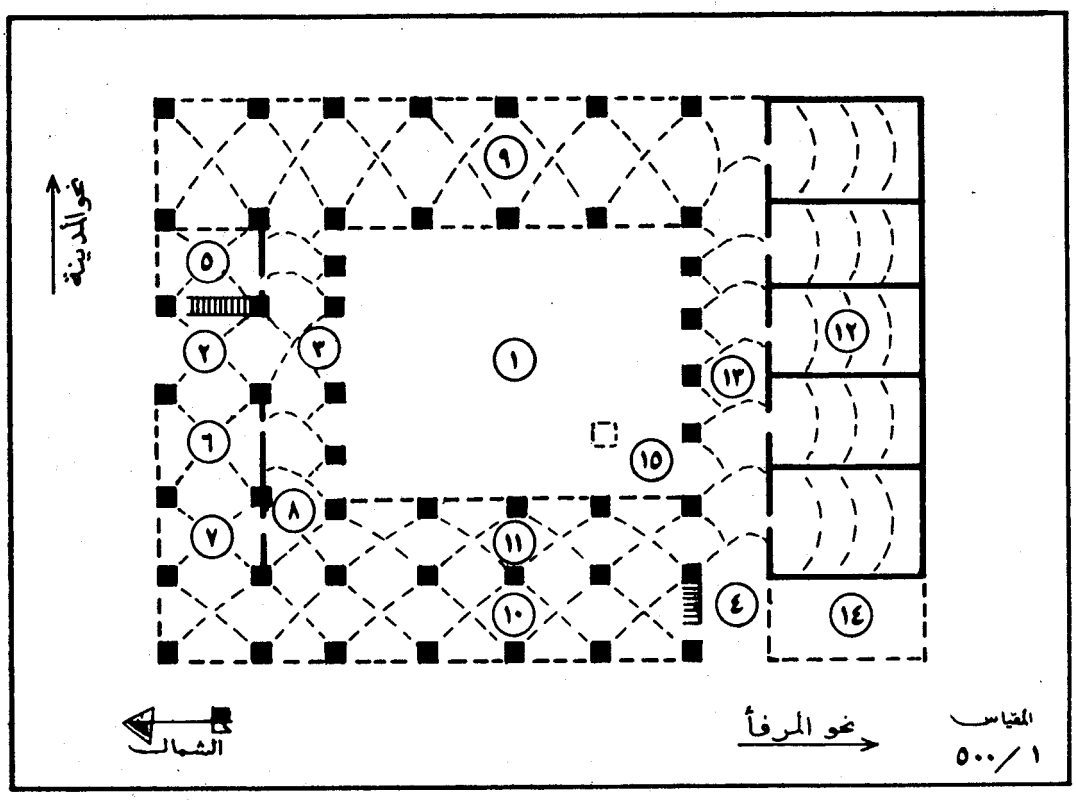

الرسم رقم ١ ــ مخطط البناء الأثري

مخصصا لادخال البضائع الآتية من المناطق الجبلية والتي كانت تعبر المدينة • كما ان السلم كان يسمح للتجار وموظفيهم عند وصولهم من المدينة ان يصعدوا الى المكاتب الموجودة في الطابق العلوي • وقاعة المدخل هذه متصلة بقاعة أخرى (الرسم رقم ١ ، ٣) تطل على الساحة الداخلية . تظهر بئر في احدى زواياها ونرى في العقد الذي يعلوها فتحة مما يدل على ان مياهها كان يستعملها أيضا الذين يشغلون الطابق العلوي • أما المدخل الثاني فنراه في القسم الجنوبي من الواجهة الغربية (الرسم رقم ١ ، ٤) ومنه تخرج البضائع المهيأة للشحن فتنقل الى المرفأ وهو في هذا الاتجاه • وهنا نجد أيضا سلما شبيها بسلم الواجهة الشمالية(٨) ومنه كان ينزل التجار وموظفوهم من الطابق العلوي للتوجه نحو المرفأ عندما تقتضي أعمالهم ذلك ولاسيما عند تحميل البضائع على الباخرة •

على يمين المدخل الشمالي وعلى يساره ثلاث قاعات (الرسم ١ و ٥ و ٦ و ٧) كانت غالبا مكاتب للموظفين المسؤولين عن استلام البضائع والكشف عنها وعن محاسبة الذين جاؤوا بها ، وهذه الغرف الثلاث تنفذ بواسطة أبواب لطيفة الى رواق أو دهليز (الرسم رقم ١ ، ٨ انظر أيضا الى الرسم رقم ٦) ربما كان يستعمل لتوزيع البضائع الواردة على المستودعات المختلفة • أما الجناح الشرقي (الرسم رقم ١ ، ٩) فيبدو اليوم كرواق طويل وكان يؤلف في الماضي مستودعا كبيرا واحدا أو أكثر لتخزين البضائع الواردة • أما الجناح الغربي فيشكل اليوم صفين من العقود ، الاول يطل على الخارج (الرسم رقم ١ ، ١٠ انظر أيضا الى الرسمين رقم ٧ و ٨) والثاني على الساحة الداخلية (الرسم ١ ، ١١) • لاندري ما اذا كان يؤلف في الماضي مستودعا واحدا أو أكثر وربما كان قاعة فسيحة يقوم العمال فيها بتوضيب البضاعة الواردة أو كان هذا الجناح ، عند الحاجة، يستعمل أيضا كليا أو جزئيا للتخزين • أما الجناح الجنوبي فيتضمن خمسة مستودعات فسيحة (الرسم رقم ١ ، ١٢) محفوظة بحالة جيدة مع كل جدرانها وأبوابها ونوافذها وفيها كانت توضع البضائع الجاهزة للتصدير عند الشحن كانت تخرج منها وتنقل مرورا برواق طويل (الرسم رقم ١ ، ١٣ والرسم رقم ٩) الى المدخل الغربي الجنوبي لتوجه نحو المرفأ •

ليس من السهل معرفة الوضع القديم للابنية التي تظهر في الزاوية الغربية الجنوبية من البناء (الرسم رقم ١ ، ١٤) وفي الزاوية الغربية الجنوبية من الساحة (الرسم رقم ١ ، ١٥) وذلك بسبب إنشاءات الطابق الارضي من « المندوبية » فلا ندري ما اذا كانت العقود والدعائم التي نراها اليوم تعود الى البناء القديم أو أنها أضيفت اليه فيما بعد •

يمتاز هذا البناء بضخامته ومتانته وحسن هندسته وتناسب عناصره العمرانية وتوزيع أجنحته المختلفة بشكل يتفق مع احتياجات العمل فيه • زد على ذلك أن عقوده ودعائمه بأناقتها ورونقها تجعل منه أجمل بناء أثري في عصره في اللاذقية • بقي علينا ان نحاول معرفة تاريخه وهويته •

يروي لنا الياس صالح (٩) أن تجارة التبغ في اللاذقية كانت خلال القرن الثامن عشر محصورة

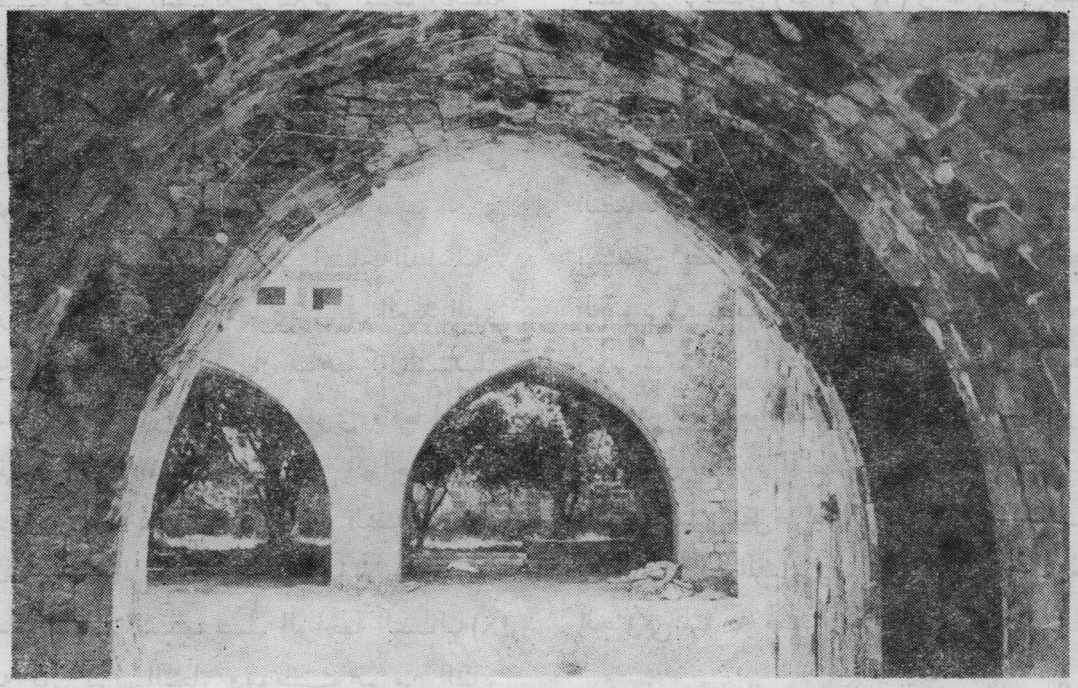

الرسم رقم ٢ ــ الواجهة الداخلية من الجناح الشرقي

الرسم رقم ٣ ــ الواجهة الداخلية من الجناح الشرقي

في شركة أسسها كبار التجار وكان مركز الشركة في خان الاسكلة أي حي المرفأ (١٠) وكانت تجمع فيه كل حاصلات التبغ تحت ادارة نظارها ووكلائها وكتابها ولهذا دعي « خان الدخان » ويفيد المؤرخ أن هؤلاء التجار قد اكتسبوا هذا الامتياز بسبب تعهدهم للسلطة العثمانية بالاموال الاميرية التي تطلب من مزارعي المناطق الجبلية (١١) فكان الحكام يساعدونهم على حصر التبغ بأيديهم •

إننا نميل الى الاعتقاد ان البناء الاثري موضوع هذه الدراسة هو « خان الدخان » الذي يتحدث عنه الياس صالح والذي كان مقر الشركة التبغ في اللاذقية خلال القرن الثامن عشر • فمن الواضح أن هذا البناء أنشىء لتخزين البضائع • والخانات الموجودة في القطر السوري خلال العهد العثماني لم تكن دائما مخصصة لاستقبال النزلاء بل كانت في كثير من الاحيان تحمل طابعا تجاريا (١٢) ومن جهة أخرى نقول أن هذا البناء اذا كان فعلا خانا لتخزين البضائع ، فضخامته واتساع مستودعاته يشير الى أنه كان حتما مخصصا للتبغ وليس لأية بضاعة أخرى فالمعروف أن اللاذقية كانت آنذاك تصدر ثلاثة أصناف من المحاصيل هي التبغ والقطن وشرانق الحرير ، غير أن التبغ كان يصدر بكميات أكبر بكثير من الصنفين الآخرين لا بل كان يؤلف معظم البضاعة المصدرة الى الخارج •

نلاحظ أن الياس صالح يذكر أن « خان الدخان » كان يقوم في حي المرفأ الامر الذي يبعد عن بحثنا هذا كل خانات اللاذقية (١٣) لكونها خارج هذا الحي (باستثناء خان واحد سنأتي على ذكره فيما يلي) • أما البناء الذي نحن بصدده فهو على مسافة ثلاثمائة متر فقط عن حوض المرفأ • ولو كان الخان الوحيد في هذه المنطقة لثبت نهائيا أنه بالفعل « خان الدخان » ولكن هناك خان آخر ينتصب شرقي جامع المرفأ وكان معروفا باسم « خان بيت مرقص » وقد هدم عام ١٩٣١ أثناء أعمال توسيع المرفأ • واذا كنا نرجح أن البناء الذي كان مبنيا في أرض « المندوبية » هو الخان الذي كان مقرا لشركة تجار التبغ في القرن الثامن عشر وليس الذي كان مبنيا على

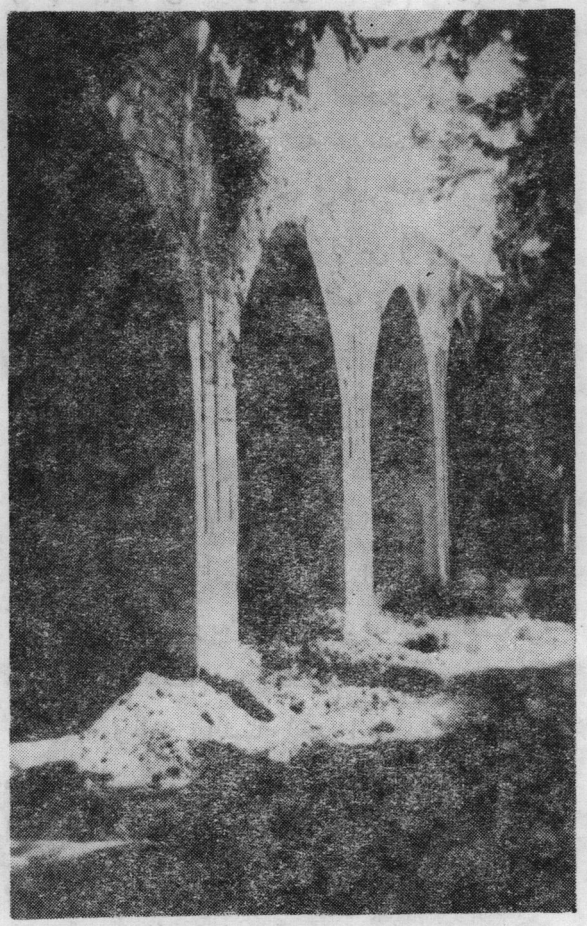

الرسم رقم ـ ٤ ـ الواجهة الداخلية من الجناح الشمالي

الرصيف قرب الجامع فذلك لعدة أدلة من بينها أن هذا الاخير أصغر من ذاك (١٤) أما الادلة الاخرى فلا بد لإظهارها من أن نقدم لمحة عن تطور تجارة التبغ في منطقتنا خلال القرون الاخيرة (١٥) •

إن أقدم مصدر لنا عن اهتمام اللاذقية بزراعة التبغ وتصديره هو مؤلف لاحد الرحالة الانكليز الذي زار منطقتنا في عام ١٧٣٨ ، ونقرأ فيه أن اللاذقية عرفت خلال الخمسين سنة الاخيرة (أي اعتبارا من أواخر القرن السابع عشر) تطورا اقتصاديا كبيرا نتيجة تصديرها التبغ الى دمياط في وادي النيل وان هذا التطور كان سببا في توسيع المدينة وانشاء أبنية جديدة فيها (١٦) وهناك وثيقة رسمية مؤرخة في أيار ١٧٣٣ وصادرة عن القنصلية الفرنسية في طرابلس (لبنان) تفيد أن السفن الفرنسية ترسو دائما في اللاذقية لنقل كميات من الدخان (١٧) •

في عام ١٧٤٤ طرأ حادث كان له تأثير عظيم في توسيع تجارة التبغ في اللاذقية فيروي لنا الياس صالح (١٨) أنه في تلك السنة قام سكان المناطق الجبلية بالعصيان على الحكومة فانقطع كل اتصال بينهم وبين اللاذقية ، لذلك لم يتمكنوا من بيع الحاصل من التبغ فعلقوه في سقوف بيوتهم • ولما جاء الشتاء أخذوا يوقدون النار في منازلهم ليتجنبوا البرد فالتصق دخانها بالتبغ المعلق فاسود لونه • وفي السنة التالية تصالحوا مع الحكومة وعاد الاتصال مع المدينة فاشترى منهم التجار هذا التبغ بثمن بخس لاسوداده وتغير هيئته في التدخين ، وأرسلوه كعادتهم الى دمياط فوافق طعمه ورائحته ذوق المصريين ، فراجت سوقه عندهم وازداد الطلب عليه (١٩) ولما علم تجار اللاذقية بذلك أشاروا الى سكان المناطق الجبلية أن يعلقوا محصول السنة القادمة ويدخنوه • ومنذ ذلك الحين صاروا يعالجونه بتلك الطريقة وأطلق على هذا النوع من التبغ اسم (دخان أبو ريحة) أو (الدخان المدخون) •

هكذا ابتدأت تجارة واسعة قامت بها اللاذقية مع الكثير من البلدان واكسبتها شهرة عالمية اذ أصبح هذا النوع من التبغ يحمل في الخارج اسم « تبغ اللاذقية » (٢٠) وهذا لم يمنع تجار اللاذقية من متابعة تصدير التبغ العادي غير المدخون (والمعروف عندنا باسم « شك البنت ») غير أن الدخان المدخون بقي مسيطرا على هذا الاخير ويشحن بكميات أكبر • والمصادر المختلفة تشير الى نشاط تجارة التبغ في اللاذقية في الفترة التي أعقبت صنع الدخان المدخون • فنعلم مثلا أنه في عام ١٧٧٧ أسس بعض أرباب البواخر الفرنسية فيما بينهم شركة لاحتكار شحن تبغ اللاذقية (٢١) ويقول الرحالة الفرنسي الشهير فولنيه ، الذي عرف اللاذقية عام ١٧٨٣ أن هذه المدينة تقوم بتجارة واسعة جدا يتألف معظمها من التبغ الذي ترسل منه سنويا أكثر من عشرين شحنة الى دمياط (٢٢) كما يقول رحالة آخر زار مدينتنا في العام نفسه ، أن في المنطقة كمية كبيرة من الدخان المرغوب جدا فيه يرسل الى مصر ويذكر أن بعض المنازل والمستودعات في المرفأ خصصت لتوضيب التبغ (٢٣) •

هناك بعض المعلومات تهم بحثنا هذا نطلع

الرسم رقم ٥ ــ الزاوية الشمالية الغربية من الساحة

عليها في مخطوطة الياس صالح (٢٤) بمناسبة حوادث جرت في اللاذقية بين ١٧٩٦ و ١٨٠٣ لامجال لذكرها هنا • ومن خلال هذه الحوادث نعلم أن خان الدخان كان لا يزال مقر شركة تجار التبغ وأن رئيس الشركة كان آنذاك ابراهيم آغا أبو بلطة وأن حناكبة (وهو رجل لعب في هذه الفترة دورا هاما) كان متقدما بين تجارة الشركة وان الخان المذكور كان مركز اقامته ومقر أعماله كما أنه قتل فيه عام ١٨٠٣ • والجدير بالذكر أنه معروف اليوم بين أوساط فروع حناكبة أنه توفي « حيث تقوم المندوبية حاليا » (٢٥) •

في أوائل القرن التاسع عشر انحلت شركة تجار التبغ والغت السلطة العثمانية امتيازاتها وصار كل تاجر يقوم بصفقاته على حدة • فما أصبح مصير الخا نالذي كان مقرها ؟•• يقول الياس صالح ان حل الشركة لم يقطع العلاقة بين التجار اذ أخذ هؤلاء يتفقون على وضع سعر واحد لكل نوع من أنواع التبغ • ففي بداية الموسم كانت تذهب لجنة من التجار الى المناطق الجبلية وتحدد سعر التبغ مع الاهالي وحصل تجار اللاذقية نتيجة ذلك على أرباح جسيمة(٢٦) فبالرغم من حل الشركة استمر تجار اللاذقية في تعاطيهم تجارة التبغ على نطاق واسع • لذلك كانوا لايزالون يحتاجون الى مستودعات فسيحة لتخزين بضائعهم فلا غرابة أن يكونوا قد استمروا في استعمال خان شركتهم المحلولة (٢٧) ولدينا مصادر عديدة عن ازدهار تجارة التبغ في اللاذقية خلال القرن التاسع عشر نذكر منها ما كتبه أحد الرحالة الانكليز الذي زار مدينتنا عام ١٨١٣ فهو يقول ان التبغ يشكل في هذه المدينة مادة عظيمة في

التجارة والتصدير (٢٨) أما الرحالة الفرنسي بوجولا الذي زارها عام ١٨٣١ (٢٩) فهو يتحدث عن « تبغ اللاذقية ذي الطعم اللذيذ والرائحة العطرة والذي هو أحسن تبغ في الشرق وأشهره » كما يخبرنا أن « الخان الكبير » قد لحقت به بعض الاضرار نتيجة زلزال عام ١٨٢٢ (٣٠) •

في عام ١٨٧٤ أصدرت السلطة العثمانية أمرا بحصر التبغ فجرى حصره في اللاذقية (٣١) فعين محل واحد تحت اشراف ادارة الرسومات وحصرت فيه عملية التوضيب (٣٢) وفرض على كل انسان اشترى تبغا من المزارعين أن يدفع رسما عند ادخاله الى البلدة ورسما اضافيا اذا أراد توضيبه • وبعد التوضيب يغلف التبغ بورق خاص ويختم عليه وكل من يبيع أو يدخن تبغا غير مغلف بالورق يدفع غرامة نقدية • كما أرسلت ادارة الرسومات مأمورين ليختموا التبغ الموجود في القرى والجبال ويسجلوه في سجلات خاصة • في هذه المرحلة كانت الدولة العثمانية تعاني أزمة اقتصادية كبرى نتيجة حرب القرم فاستقرضت أموالا كثيرة من بعض الدول • غير أنها ما لبثت أن أعلنت انها لن تدفع سوى خمسين بالمئة من الفوائد فاجتمع الدائنون وأرغموا السلطة العثمانية على أن تعلن في عام ١٨٨١ أنها تخصص قسما من مواردها لدفع الفوائد ولهذه الغاية أقيمت مؤسسة باسم « مؤسسة الدين العثماني العام » لتستوفي من بعض موارد الدولة المبالغ التي تعادل الفوائد وكانت موارد ادارة حصر التبغ من بينها وهكذا أصبحت ادارة حصر التبغ في اللاذقية تابعة لمؤسسة « الدين العثماني العام » • إن هذه الترتيبات وضعت كما ذكرنا ، في عام ١٨٨١ وها

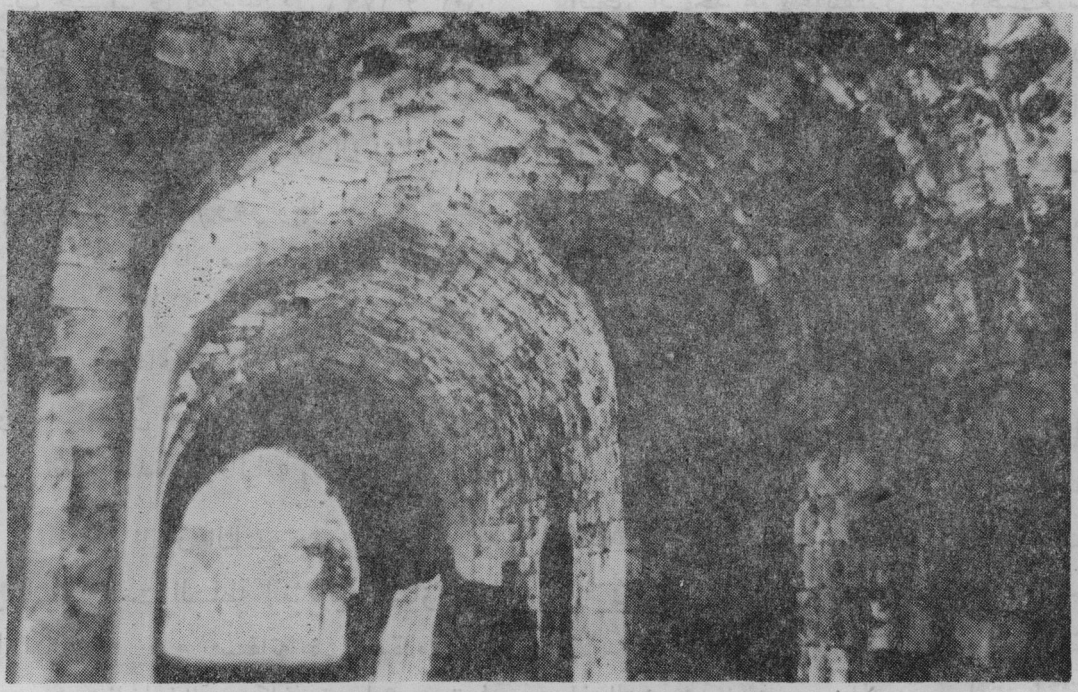

الرسم رقم ٦ ــ رواق الجناح الشمالي

أننا نعرف أنه في مطلع القرن العشرين كانت ادارة حصر التبغ في اللاذقية متمركزة مع مكاتبها ومستودعاتها في البناء الاثري موضوع هذا البحث (٣٣) أليس ذلك كافيا ليبرهن على أن هذا البناء كان مقر الادارة المذكورة منذ تأسيسها عام ١٨٧٤ ؟

من المعروف أنه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان البناء الأثري مع العقار الذي يقوم عليه ، ملك الياس مرقص ، قنصل روسيا في اللاذقية (٣٤) والذي كان له نفوذ كبير في المنطقة من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية (٣٥) وبعد وفاته التي كانت في عام ١٨٧٠ باع ابنه جرجس العقار مع البناء الى ابراهيم نصري وكان من كبار المزارعين والتجار والمعروفين أيضا أن ادارة الحصر كانت تستعمل البناء بطريق الايجار .

في عام ١٩٠٤ باشر ابراهيم نصري ببناء منزل في الزاوية الغربية الجنوبية من البناء القديم ليسكنه مع عائلته وانتهى هذا المنزل في عام ١٩٠٥ (٣٦) وهو بناء جميل يمتاز بأناقة هندسية (انظر الى الرسمين رقم ١١ و ١٢) وفي عام ١٩١٠ عندما توفي ابراهيم نصري غادرت أرملته مع ابنها الوحيد ميشيل المنزل بسبب بعده عن المناطق المأهولة من المدينة وعادت الى منزلها القديم . وبقي المنزل غير مسكون حتى نشوب الحرب العالمية الاولى . بينما بقيت ادارة حصر التبغ في القسم الذي تشغله . والذين غرفوه آنذاك يقولون لنا أنه كان يتضمن اضافة الى مستودعات التخزين قاعات تصنع فيها السجاير وان المكاتب كانت في الطابق العلوي . وعندما بدأت الحرب ، غادرت أرملة ابراهيم نصري مع ابنها اللاذقية

الرسم رقم ٧ ــ الجناح الغربي

الرسم رقم ٨ ــ عقود الجناح الغربي

وذهبت الى قبرص فاغتنمت السلطة التركية غياب اصحاب الملك فاستولت عليه ويقال انها جعلت منه منزلا أو مقرا للمتصرف وفي هذه الحال يكون قد حوى المتصرفين الاتراك الذين تعاقبوا آنئذ على اللاذقية وهم عطا بك الايوبي وعبد الغني سني بك ورشيد بك طليع • وطيلة الحرب العالمية بقيت ادارة حصر التبغ تسيّر أعمالها في البناء القديم •

في تشرين الثاني ١٩١٨ ، عندما دخلت الجيوش الفرنسية اللاذقية استولت على الدار المذكورة • وفي عام ١٩١٩ عاد أصحاب الملك من قبرص وعندئذ اشترت الحكومة الفرنسية من ميشيل نصري الدار مع قسم من الارض المجاورة بسعر سبعة آلاف ليرة ذهبية عثمانية • ففي مطلع عهد الانتداب كان وضع هذه البقعة على الشكل التالي : كان البناء الاثري (الرسم رقم ١٢ ، ١) لايزال مؤجرا لادارة حصر التبغ • أما الدار (الرسم رقم ١٢ ، ٢) فكانت تحتل القسم الارضي والعلوي من زاوية البناء القديم الغربية الجنوبية وأصبحت منزلا للحاكم الفرنسي في اللاذقية • وكان هناك شارع (الرسم رقم ١٢،٣) يخترق هذه البقعة من الشمال حتى الزاوية الغربية الجنوبية منها فاصلا هكذا البناء القديم ودار الحاكم عن قطعة ذات شكل مثلث لم تدخل ضمن عملية الشراء وكانت تحتوي على دار للسكن (الرسم رقم ١٢ ، ٤) ومعصرة زيت (الرسم رقم ١٢ ، ٥) ومقبرة (الرسم ١٢ ، ٦) ومساحات غير مبنية (الرسم رقم ١٢ ، ٧) •

بقيت ادارة حصر التبغ تتابع أعمالها بجوار دار الحاكم طيلة عشر سنين وكانت تتضمن اضافة

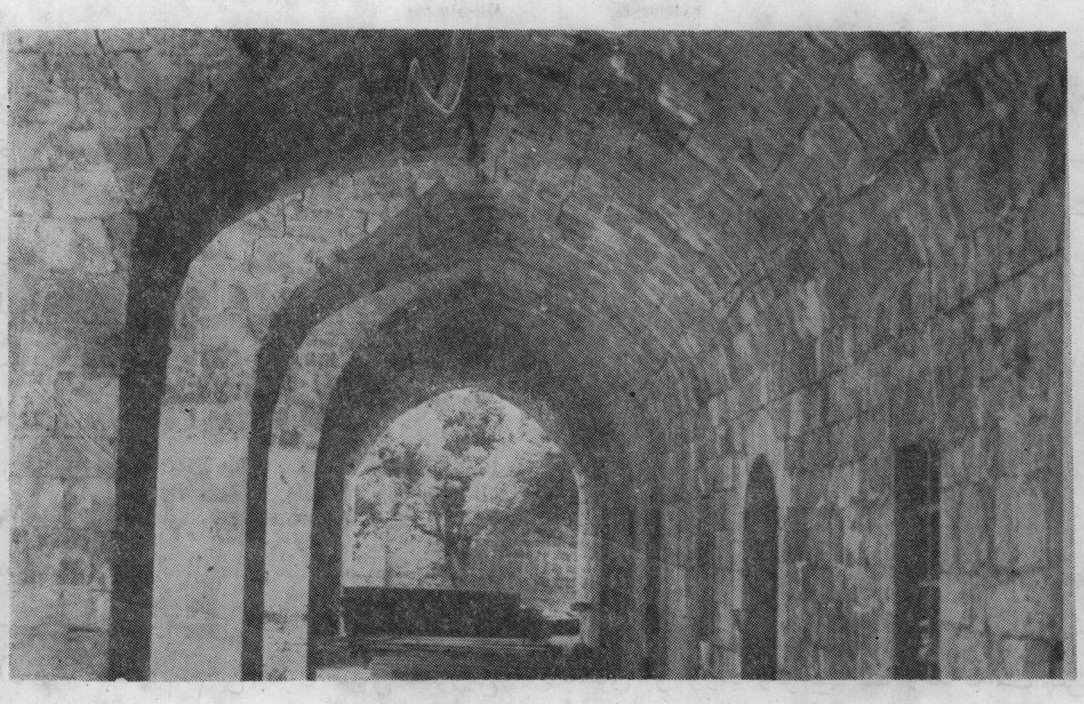

الرسم رقم ٩ ــ رواق الجناح الجنوبي

الى المكاتب والمستودعات ، مصنعا لصنع السجاير وفي عام ١٩٢٨ كان يشتغل فيه ثلاثمائة عامل وعاملة وكان ينتج عدة أصناف من السجاير أهمها « التطلي سرت » و « الشمشون » (٣٧) • وفي عام ١٠٣٠ قامت السلطة الفرنسية في سورية بتصفية موضوع « الدين العثماني العام » وعندها حلت ادارة حصر التبغ (٣٨) وأخلت البناء • وفي عام ١٩٣٢ اشترت الحكومة الفرنسية من آل نصري البناء الذي تشغله ادارة الحصر والبقعة ذات الشكل المثلث الواقعة غربي الشارع بسعر ثلاثة آلاف ليرة ذهبية عثمانية وألحقت كلها بدار الحاكم • وعندئذ أزيل من البناء الاثري كل منشآت الطابق العلوي وجدران الطابق الارضي ولم يبق منه إلا ما نراه اليوم أي الدعائم والسقوف المعقودة ثم هدمت المعصرة ودار السكن التي بجوارها والغي الشارع وأزيلت المقبرة وحولت كل هذه المساحات الى حديقة كبيرة تحيط بدار الحاكم وبالبناء القديم من الشمال ومن الغرب • وبعد المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦ أصبح ممثل فرنسا في اللاذقية يحمل اسم « مندوب » ومن ذلك الحين أطلق على المكان « المندوبية » • أما الجناح التابع لدار الحاكم الذي نراه اليوم في القسم الشمالي (الرسم رقم ١٢ ، ٨) فقد بني عام ١٩٣٨ • وبعد العدوان الفرنسي على مدينتنا يوم ٥ تموز ١٩٤٥ غادر الكولونيل بونو، وهو آخر مندوب فرنسي في اللاذقية ، دار المندوبية التي بقيت غير مأهولة حتى يومنا هذا (٣٩) •

إن هذه اللمحة التاريخية تبين أن البناء الاثري كان في المرحلة الاخيرة من عهده (أي

اعتبارا من أواخر القرن التاسع عشر) مقر إدارة حصر التبغ واذا ثبت رأينا أنه هو بالفعل « خان الدخان » الذي كان قائما في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، يكون هذا البناء قد بقي خلال قرنين مرتبطا بتجارة التبغ • ورأينا أن مخططه يتفق مع هذه التجارة • هل هذا يكفي لنتصور أنه وجد لهذه الغاية أو بتعبير آخر هل شركة تجار التبغ هي التي بنته في مطلع القرن الثامن عشر أو وجدت بناء سابقا لتأسيسها ولما رأت أنه يصلح لعملها جعلت منه مركز النشاطها ؟• ولا بد من الاشارة الى أن هناك بعض العناصر الهندسية ولا سيما شكل السقوف المعقودة يوحي لنا بأن هذا البناء أقدم من القرن الثامن عشر ومن الضروري للتأكد من ذلك أن تقوم المديرية العامة للآثار والمتاحف بدراسة دقيقة له (٤٠) آخذة بعين الاعتبار العوامل التاريخية التي ذكرناها في هذا البحث •

لقد بقي هذا البناء بعد أن أخلته السلطة الفرنسية مجهولا تماما وربما ساعده على ذلك كونه ملكا لدولة أجنبية كما أن الأشجار الكبيرة الموجودة في الحديقة ودار المندوبية التي تغطي قسما كبيرا من واجهته الغربية كانت تحجبه عن الانظار • ونعترف انه رغم اهتمامنا بكل مايوجد في مدينتنا من آثار قديمة لم ننتبه يوما اليه الا عندما سمعنا ان هناك مفاوضات بين بلدية اللاذقية والحكومة الفرنسية لشراء عقار المندوبية بكامله• وقد تم فعلا هذا الشراء في أول تشرين الاول ١٩٧٨ • ولما أخذت بعض الجهات ، بعد ذلك ، تفاوض البلدية لشراء العقار منها ، أصدر محافظ اللاذقية الاستاذ منير بريخان ،بتاريخ ١١ كانون الاول ١٩٧٨ ، أمرا اداريا رقم ٦٣٤/١٠/٨٣ يقضي بتشكيل لجنة مهمتها « دراسة الوضع التاريخي والاثري » للبناء القائم على العقار المذكور • وعلى أثر ذلك قدمت اللجنة تقريرا بينت فيه الطابع الاثري للبناء معلنة انه « لايجوز بشكل من الاشكال ان يزال » • وبتاريخ أول نيسان ١٩٨٠ اصدر سيادة المحافظ أمرا اداريا رقم ١٩٥/١٠/١٣ـ٢ يقضي بتأليف لجنة مهمتها تحضير البناء المذكور « ليكون مقرا لدائرة الآثار والعاديات » وعلى أثر ذلك أخذت اللجنة تهتم بالبناء بمساعدة المحافظ ورئيس البلدية السيد شفيق أرناؤوط وتوجيهاتهما وقد قدمت تقريرا يتضمن توصيات تتعلق بصيانته وترميمه •

يتحلى هذا البناء الاثري بمزايا عديدة من الناحية السياحية • فبالاضافة الى روعته وعظمته انه ينتصب على طرف حديقة من أجل حدائق القطر ، وهو يطل على شارع تقوم على جانبه معظم الفنادق والمطاعم والمقاهي • وهذا الشارع متصل بباب المرفأ الرئيسي • عندما نتأمل هذه البقعة من المدينة ينتابنا حلم جميل ولا أحد يستطيع أن يحاسبنا على احلامنا • فنتصور البناء القديم وقد تم ترميمه محتلا القسم الشرقي الجنوبي من العقار • ومقابله ، في القسم الغربي الشمالي من العقار ، تتخيل البناء الوحيد الذي لا يسيء الى الطابع الاثري والسياحي الا وهو المتحف ، المتحف الذي وعدت به اللاذقية • وبين البنائين تمتد الحديقة وقد تم تنويرها واقيم فيها مقصف وأحواض ونظمت كمنتزه للسياح

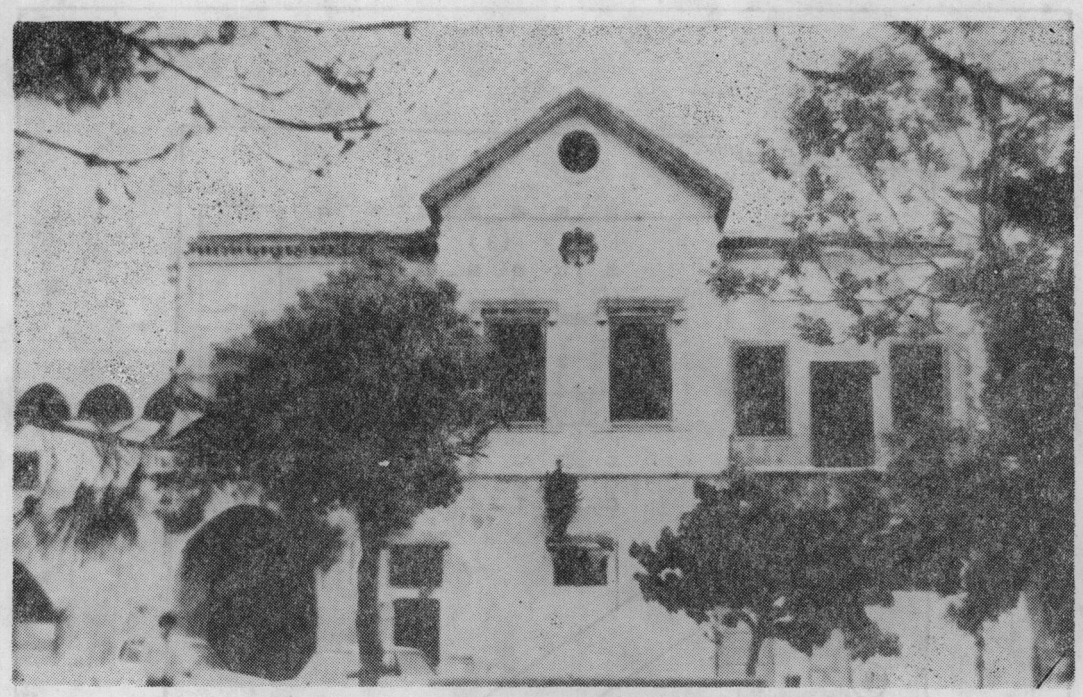

الرسم رقم ١٠ ــ ((دار المندوبية)) (الواجهة الغربية)

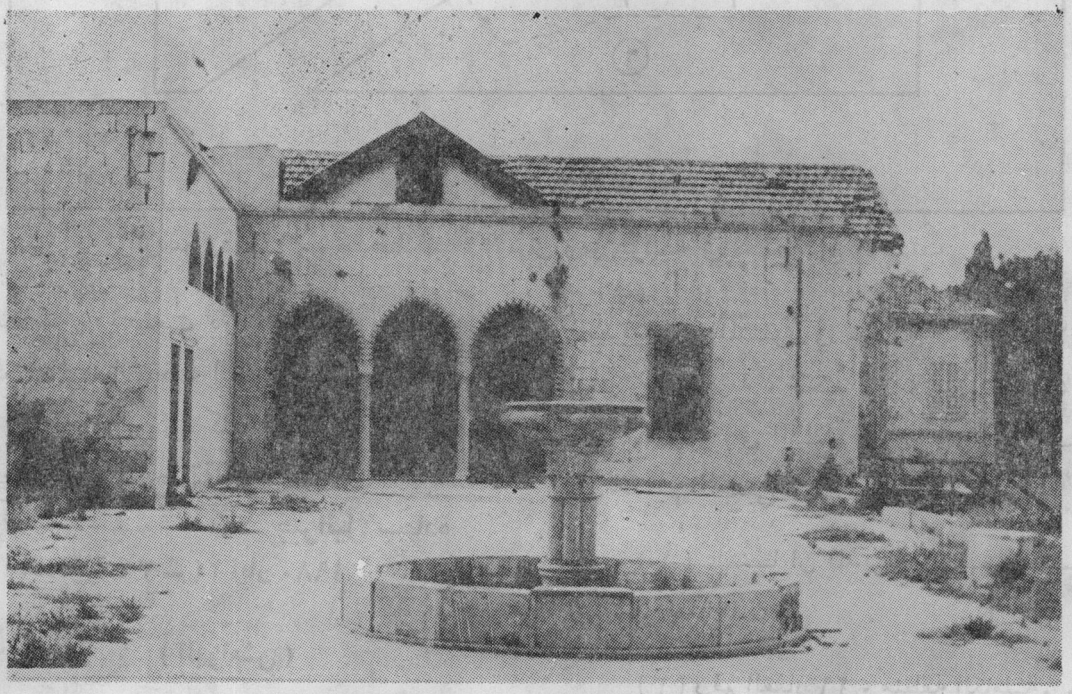

الرسم رقم ١١ ــ ((دار المندوبية)) (الواجهة الشمالية)

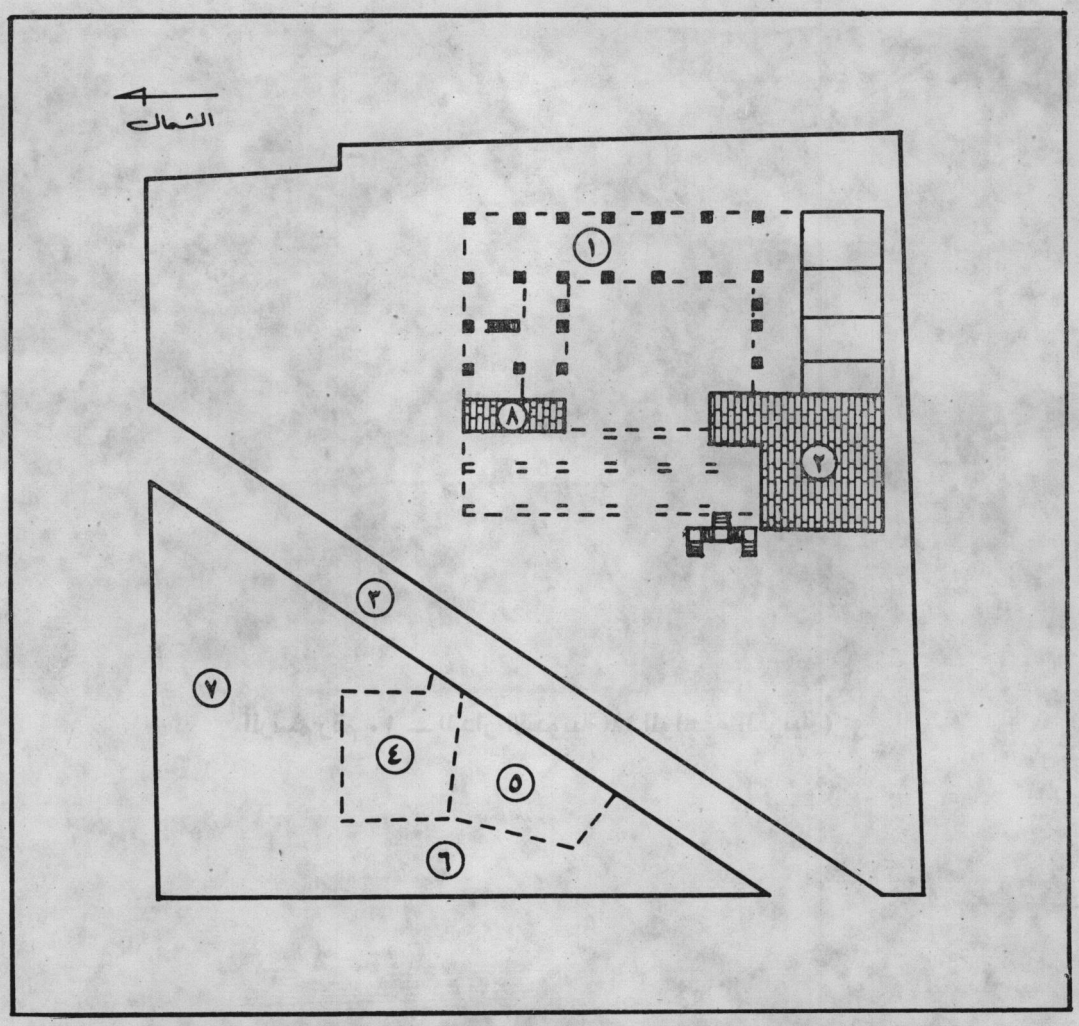

الرسم رقم ١٢ ــ مخطط البناء الأثري وما حولــه في مطلع عهد الانتداب

وللمواطنين ووضعت بين أشجارها وزهورهــا القطع الاثرية الضخمة التي لايتسع لها المتحف . فاذا تضافرت الجهود كلها فلا شيء يمنع من ان يصبح هذا الحلم حقيقة .

جبرائيل سعادة

اللاذقية ، ٣ ــ ٢٤ أيار ١٩٨٠

(الهوامش)

(١) راجع بحثنا : « التنقيب الاثري في اللاذقية » ، المنشور في مجلــة الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلد ٢٦ ، عام ١٩٧٦ ، ص ٢٦٩ ــ ٢٧٤ (في القسم العربي) و ص ٩ ــ ٢٦ (في القسم الاجنبي) .

(٢) علمنــا ان المديرية المذكــورة تستعد لتسجيل هذا البناء .

(٣) رقم العقار ٢٩ ، منطقة الكاملية . .

(٤) يتراوح ضلعها بين ١٤٠ و ٢٠٠ سم .

(٥) كما هو الحال في مدخل (الرسم رقم ١ ، ٢ ، ٣) وقاعات (الرسم رقم ١ ، ٥ و ٦ و ٧) الواجهة الشمالية وفي كل من الجناح الشرقي (الرسم رقم ١ ، ٩) والغربي (الرسم رقم ١ ، ١٠ و ١١ ، انظر ايضا الى الرسمين رقم ٧ و ٨) .

(٦) كما هو الحال في مستودعات الجناح الجنوبي (الرسم رقم ١ ، ١٢) .

(٧) كما هو الحال في الرواق الداخلي من كل من الجناح الشمالي (الرسم رقم ١ ، ٩) والجنوبي (الرسم رقم ١ ، ١٣ ، انظر أيضا الى الرسم رقم ٩) .

(٨) عند بناء « دار المندوبية » اقيم جدار في وسط السلم فحجب نهايته ولا نرى اليوم منه سوى ست درجات .

(٩) الياس صالح : « آثار الحقب في لاذقية العرب » ، (مخطوطة) ، المجلد الاول ص ٩٦–٩٧

(١٠) في العهد العثماني كان حي المرفأ في اللاذقية مع ما يتضمن من دوائر حكومية ومكاتب تجارية ومستودعات يشكل مجموعة عمرانية مستقلة عن المدينة نفسها التي كانت أبنيتها آنذاك لاتتجاوز غربا الخط الذي يعادل اليوم شارع هنانو . اذ أن البقعة الممتدة بين هذا الخط والبحر ، والتي كانت ماهولة من العهد اليوناني حتى العهد البيزنطي ، قد تضررت أكثر من غيرها من الزلازل التي تعرضت لها اللاذقية في القرون الوسطى . والجدير بالذكر انها أصبحت بعد زلزال ١٧٩٦ (وهو اعنف زلزال عرفته مدينتنا) مكسوة بالكروم والبساتين .

(١١) ان التبغ في المنطقة الساحلية السورية يزرع بنوع خاص في سلسلة جبال اللاذقية وفي مرتفعات الباير والبسيط شمالي اللاذقية .

(١٢) بخصوص خانات القطر العربي السوري راجع عبد القادر الريحاوي : « خانات مدينة دمشق » الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلد رقم ٢٥ ، ١٩٧٥ ص ٤٧ – ٨٢ ولنفس المؤلف « العمارة العربية الاسلامية ، خصائصها وآثارها في سوريا » ، دمشق ١٩٧٩ .

(١٣) لم ينشر حتى الآن اي بحث عن خانات اللاذقية . نكتفي بتعدادها هنا : خان البازار ، خان الحنطة ، خان أبو نور الدين ، خان بيت عيسة ، خان زحوق ، خان الشام ، خان العتم ، خان كروم ، خان الصياغة ، الخان الصغير ، خان بيت مرقص (وكان هذا الاخير في حي المرفأ) .

(١٤) هذا ما يظهر في مخطط للمرفأ وضع عام ١٩٢٩ من قبل الاشغال العامة وفي رسم يعود الى عام ١٨٢٠ منشور في مؤلف أحد العلماء الاجانب ، راجع :

RICHTER : «Wallfahrte im Morgenlande», Berlin 1822, Pl. VI

(١٥) لقد تناولنا هذا الموضوع في مقالنا : « لمحة تاريخية عن تبغ اللاذقية » ، المنشور في مجلة التبغ ، دمشق ، العدد الثاني ، ١٩٦١ ص ٢٦ – ٢٩

(١٦) Richard POCOCKE : « A Description of the East and some other Countries », London 1743, vol. II p. 197.

(١٧) F. CHARLES - ROUX : «Les Echelles

de Syrie et de Palestine au XVIIIe siècle», Paris 1928 p. 80

(١٨) الياس صالح ، المجلد الاول ، ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(١٩) هناك رواية تقول ان التبغ المدخون ارسل آنذاك لا الى دمياط بل الى انكلترا حيث رأى اصحاب المصانع انه يحسن بأن يستعمل في التبغ الخاص بالغليون .

(٢٠) لعبت تجارة « دخان الابوريحة » دورا هائلا في الحياة الاقتصادية باللاذقية وبقيت خلال قرنين تقريبا تشكل المورد الرئيسي للمدينة. غير أن تدخين التبغ كان يلحق بعض الاضرار بالثروة الحراجية فأصدرت الحكومة السورية قرارا بمنعه بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩٥٥ . ولما استمر طلبه من الخارج قررت ادارة حصر التبغ والتنباك أن تقوم بنفسها بعملية التدخين وهذا ما يجري حتى الآن . ان دخان الابو ريحة اللاذقي يستعمل في الخارج إما في تحضير تبغ الغليون واما لمزجه مع غيره من التبغ بنسبة ٣ ٪ تقريبالاكسابه نكهة خاصة مميزة .

(٢١) F. CHARLES - ROUX, op. cit. p. 121

(٢٢) M. C. - F. VOLNEY : « Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785 « Tome II, Paris 1787, p. 160

(٢٣) FARRIERES - SAUVEBOEUF : Mémoires historiques, politiques et géographiques des voyages faits en Turquie, en Perse et en Arabie depuis 1782 jusqu'en 1789 », Paris, Tome II, p. 172 - 173

(٢٤) الياس صالح ، المجلد الاول ص١٥١ و ١٥٧

(٢٥) لا شك ان هذا برهان كبير على ان البناء الاثري موضوع هذا البحث هو بالذات « خان الدخان » غير انه يرتكز على تقليد شفوي ولكان أقوى بكثير لو انه كان مثبتا في مؤلف أو وثيقة مكتوبة .

(٢٦) الياس صالح ، المجلد الاول ص ٩٦ و ٩٧ .

(٢٧) وربما استعملوا أيضا ، بسبب توسع حركتهم التجارية وتكاثر بضائعهم « خان بيت مرقص » وقد رأينا أعلاه انه كان موجودا في عام ١٨٢٠ .

(٢٨) Charles MERYON : «Travels of Lady Stanhope», London 1846, p. 269 - 270

(٢٩) M. MICHAUD et M. POUJOULAT : « Correspondance d'Orient » (1830 - 1831) », Tome VII p. 166 - 168.

(٣٠) أليس من الطبيعي أن نعتبر انهيقصد « بالخان الكبير » الخان الذي هو بالفعل أكبر خاناتاللاذقية الا وهو البناءالاثري القائم في أرض المندوبية . نذكر في هذه المناسبة اننا نرى اليوم فيه آثار بعض الترميمات ربما تمت بعد زلزال ١٧٩٦ أو بعد زلزال ١٨٢٢ .

(٣١) الياس صالح ، المجلد الثاني ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٣٢) لم يحدد المصدر هذا المكان وسنرى

فيما سيلحق انه كان غالبا البناء موضوع هذا البحث .

(٣٣) من المؤسف حقا ان تتوقف فجأة رواية الحوادث عام ١٨٨١ في مخطوطة الياس صالح رغم انه عاش حتى عام ١٨٨٥ فكان يجب أن نكون أكثر اطلاعا على المرحلة التي تتراوح بين تاريخ اقامة حصر التبغ في اللاذقية وعام ١٩٠٥ حيث نعلم بشكل اكيد أن الادارة المذكورة كانت تقيم في البناء الذي يهمنا . حاولنا عبثا ان نحصل على معلومات من اشخاص عاصروا هذه المرحلة ولا يزالون على قيد الحياة لكن معظمهم فقدوا الذاكرة أو لا يعرفون شيئا عن الموضوع .

(٣٤) راجع « مشاهير اللاذقية ، الياس مرقص » وهو مقال منشور في مجلة النور (اللاذقية) الجزء الخامس السنة الاولى ، تشرين الاول ١٩٢٥ ص ٣٢٥ — ٣٢٩ .

(٣٥) لا يوجد أي مصدر يشير الى تاريخ هذه الملكية وكيف تم الحصول عليها .

(٣٦) يروى انه في هذه الفترة فكر السلطان عبد الحميد ان يقوم بجولة في سوريا ولما علم متصرف اللاذقية شاكر باشا بذلك سأل ابراهيم نصري اذا كان بالامكان وضع منزله الواقع ضمن المدينة تحت تصرف السلطان أثناء إقامته في اللاذقية ويقال ان ابراهيم نصري قرر عندئذ بناء منزل آخر لهذه الغاية . وهذا ما يفسر كيف أن بنى منزلا كان آنذاك خارج المدينة .

(٣٧) Paul JACQUOT : L'Etat des Alaouites », Beyrouth 1929 p. 58 - 59

(٣٨) في عام ١٩٣٥ تم تأسيس « ادارة حصر التبغ والتنباك » التابعة للسلطة الفرنسية والتي اختارت مقرا لها في موقع آخر من المدينة .

(٣٩) سمحت الحكومة الفرنسية لاعضاء قنصليتها ولبعض رعاياها في حلب ان يمكثوا في دار المندوبية عند زيارتهم للاذقية فتم ذلك بصورة متقطعة بين ١٩٤٨ و ١٩٥٥

(٤٠) ان دراستنا لهذا البناء كانت سريعة جدا اذ انها استغرقت بضعة ايام فقط ، أخذنا خلالها المقاييس التي سمحت لنا بوضع مخطط له (الرسم رقم ١) .

★ ★ ★